

ملف فعاليات اليوم الدراسي
" حياة وآثار المؤرخ الراحل الدكتور يحيى
بوعزيز "

إشكالية كتابة التاريخ الوطني عند يحيى بوعزيز وموقف الاسطوغرافيا الاستعمارية منه

د. ودان بوغفالة،

مخبرات البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر

عندما عازمت على المشاركة في هذا الملتقى المخصص للمؤرخ يحيى بوعزيز، فكرت في الحديث عن "قضايا من التاريخ الوطني في كتابات يحيى بوعزيز" وما سجله من مواقف بخصوصها. ولكن عندما شرعت في معالجة الموضوع، وجدت أنه من الضروري البحث أولا عن قضية رئيسية لطالما شغلت بال بوعزيز، وكان يثيرها باستمرار في مناسبات مختلفة، ألا وهي إشكالية كتابة التاريخ الوطني نفسه، وما صاحب هذه العملية من تصورات وانشغالات وصعوبات وعوائق.

لقد انكب المؤرخ يحيى بوعزيز ومنذ بداية مشواره في البحث التاريخي؛ على دراسة التاريخ الوطني وسد ثغراته والنهوض بإحيائه وترقيته، وكان يحدوه الأمل في أن يرفع عنه التزوير والتشويه والاختلاق. ومن قضاياها التي أرقته وتصدى لها، قضية كيفية إعادة كتابة هذا التاريخ وتحريره من الأقلام التي طمسته ومسخته على حد تعبيره: «فتصدى جيل من الباحثين الفرنسيين، أغلبهم من ضباط جيش الاحتلال لتسجيل أحداث هذه الفترة من تاريخ الجزائر الحديث بصورة مشوهة وممسوخة، لخدمة الاستعمار، وترسيخ أقدامه، وتدعيمه، وطمسوا الكثير من الحقائق، وحرفوا غيرها، واختلقوا أشياء كثيرة لا صلة لها بتاريخ الجزائر، وأحداثها، وتطوراتها، ووقائعها الحقيقية» (بوعزيز، ي. 1985: 4).

ودارت المواضيع التي أثارها في مجلتي "الأصالة" و"الثقافة" خاصة؛ والتي تضمنتها كتبه المنشورة، حول تاريخ الجزائر الحديث وما ارتبطت به من أحداث محلية ودولية. كتب في تاريخ المدن، وتوقف مطولا عند

تاريخ الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، فاستعرض تاريخ المقاومة الشعبية ودولة الأمير عبد القادر، وتاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر. وفي كل مناسبة، كانت كلماته تتفجر وطنية وصدقا وحماسة.

تدوين التاريخ الوطني: الوضعية والأسباب

يرى الأستاذ يحيى بوعزيز أن انشغال الجزائريين عبر التاريخ بصد العدو ودحر جيوشه حال دون تدوين تاريخ الجزائر، وهذا منذ العصور القديمة إلى غاية العصر الحديث ومرورا بفترة العصر الوسيط. ففي مقدمة كتابه "ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين" المؤرخة بالسادس والعشرين من شهر أفريل عام 1975م قال ما نصه: « إن التأريخ لماضي الجزائر شاق وعسير على اختلاف مراحلها وعصوره ... وذلك لقلة المصادر والوثائق وانشغال أجدادنا عن التدوين بالحروب ضد الغزوات الاستعمارية المتوالية على بلادنا منذ أقدم العصور » (بوعزيز، ي. 1980: 5).

إن التاريخ القديم للجزائر لم يكتبه الجزائريون، لأنهم انشغلوا بمجابهة استعمار متواصل لعدة قرون من طرف الفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين، والتاريخ الوسيط لم يكتب هو كذلك، لأن الجزائريين تأثروا بالأزمات السياسية والعسكرية الناتجة عن عدوى الخلافات الدينية والخصومات المذهبية من المشرق الإسلامي إلى الجزائر خاصة والمغرب الإسلامي عامة، ومثال ذلك الصراع المير بين دول القرن الثالث عشر ميلادي الحفصية والزيانية والمرينية (بوعزيز، ي. 1980: 5).

أما تاريخ الجزائر الحديث، فهو غامض على حد تعبير بوعزيز، وبه حلقات مفرغة وفجوات سياسية واقتصادية وعسكرية واجتماعية وثقافية. وإذا كانت بعض أحداثه وتطوراتها قد سجلت وتم التأريخ لها، فإنها لم تسجل بالمستوى المطلوب بسبب انشغال الشعب والسلطة معا بحرب الأعداء وحملاهم المتكررة على الجزائر من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلاديين: « وكأن الجزائر في هذه الفترة كانت

في حالة حرب لأكثر من أربعة قرون، وحالة الحرب لا تسمح بحفظ الأحداث والوقائع، أو الاهتمام بتسجيلها « (بوعزيز، ي. 1985: 4). ومثلما غاب التدوين التاريخي في المراحل التاريخية المذكورة، غاب كذلك في مرحلة التاريخ المعاصر ابتداء من عام 1830م. حيث حاولت فرنسا فصل الجزائر تماما عن ماضيها، وعن أمجادها الفكرية والحضارية، فصمم الشعب على المقاومة والاستبسال في الكفاح والجهاد، وألهاه ذلك عن التدوين التاريخي، والذي اهتم به الفرنسيون لخدمة الاستعمار (بوعزيز، ي. 1980: 5).

إن تاريخ الجزائر يقول بوعزيز، كتبه المؤرخون الفرنسيون وضباط جيش الاحتلال، وهو تاريخ مزور ومشوه ومختلق وممسوخ ومحرف. لقد كتب في غياب الوثيقة الوطنية التي اختفى بعضها وأتلف البعض الآخر، وحُمِل الباقي منها إلى ما وراء البحار (بوعزيز، ي. 1985: 4).

الإستوغرافيا الاستعمارية وتاريخ الجزائر: الخلفيات والأهداف

تحدث الأستاذ يحيى بوعزيز عن المدرسة الفرنسية وموقفها من التاريخ الوطني، وأكد بأن تاريخ الجزائر كتب في إطار التأريخ لأعمال الجيش الفرنسي وتاريخ فرنسا الذي سُمي بـ: "تاريخ فرنسا المحلي". وتضمن حديثه هذا أيضا الإشارة إلى أن كتابات الفرنسيين تمت من وجهة نظر واحدة، وكان هدفها خدمة الوجود الاستعماري وتبريره. وعليه فتاريخ الجزائر في الكتابات الفرنسية ليس صحيحا كله، وليس كاملا (بوعزيز، ي. 1980: 6-7، سعيدوني، ن. 2000: 64).

لقد أهملت الإستوغرافيا الاستعمارية - باستثناء قلة من المحدثين - المعلومات التي تزخر بها الوثائق الجزائرية، ولم تهتم إلا بما يخدم المشروع الاستعماري ويدعمه. ويعمل بوعزيز حرمان الفرنسيين من الوثيقة الجزائرية بسبب تسريبها إلى جهات أخرى، أو بسبب عائق اللغة العربية التي يجهلونها، فاعتنوا فقط بتحضير ملخصات مشوهة (بوعزيز، ي. 1980: 7).

وفي الوقت الذي عملت فيه الإستوغرافيا الاستعمارية على إثبات أن كل المدن وقرى الجزائر الكبيرة هي من تأسيس الرومان والبيزنطيين، تجاهلت دور السكان الأصليين في تأسيس المدن والمجمعات العمرانية. وركزت جل اهتمامها على دراسة الآثار التي تعود إلى العهد الروماني والبيزنطي وأعادت لها الاعتبار، وهو ما يتجلى بوضوح في الدراسات الخاصة بمدن بطيوة وشرشال وتيبازة وجميلة وتيمقاد وغيرها، وتأسف بوعزيز قائلاً: « وغاب عن أنظارهم بأن هذه الآثار شيدت بسواعد أجدادنا، ومهاراتهم وبإمكانيات بلادهم الاقتصادية » (بوعزيز، ي. 2002: 7-8).

ولم تكتف المدرسة الاستعمارية بتمجيد بقايا الحضارة الرومانية فحسب، بل تعمدت أن تتجاهل معالم الحضارة العربية الإسلامية بالمدن، كالمساجد والمدارس والزوايا والقصور والمكتبات والكتاتيب، وهذا بهدف طمس تلك المعالم وسلخ المدن عن طابعها الإسلامي الشرقي. ومثال ذلك مدن تلمسان وندرومة ووهران ومستغانم والجزائر وبجاية وغيرها (بوعزيز، ي. 2002: 8).

وإذا كانت بعض الدراسات الأوروبية في نظر يحيى بوعزيز قد تناولت المدن الجزائرية وماضيها الحضاري إلا أنها: « لم تكن كاملة، ويشوبها النقص وتعوزها الدقة والشمولية والتكامل، لأنها ركزت بصفة خاصة إما على الفترة الرومانية القديمة، أو الفترة الأسبانية والفرنسية الحديثة، وإما على بعض المظاهر الأثرية العمرانية لبعض العهود الإسلامية الخاصة » (بوعزيز، ي. 2002: 8-9).

والذين تولوا كتابة التاريخ الوطني بالمواصفات المذكورة هم كتاب وباحثون، معاصرون ومحدثون، هواة وغاؤون، مدنيون وعسكريون، مختصون وغير مختصين. وكان هدفهم هو توجيه تاريخ الجزائر وجهة استعمارية « خبيثة وماكرة » لخدمة السياسة الاستعمارية وتبرير وجودها، علاوة على الأهداف العنصرية والصليبية البغيضة (بوعزيز، ي. 1988: 56/2 - 57؛ العروي، ع. 1996: 17/1).

إعادة صياغة أحداث التاريخ الوطني: الشروط والأفاق

وضع المؤرخ يحيى بوعزيز شروطا لإعادة صياغة أحداث التاريخ الوطني، وهي أنه لا بد من إعادة كتابة هذا التاريخ من وجهة النظر الوطنية، مع ضرورة استخدام الوثيقة الوطنية في هذه العملية. وعلى أن يتحقق ذلك من خلال عمل جماعي، تتكاثف فيه جهود الباحثين الأكفاء ذوي القدرة على البحث والتنقيب والاستقصاء واستغلال المصادر، لأن الجهد الشخصي لا يكفي وحده ولا يعجل بملء الفجوة (بوعزيز، ي. 1985: 4).

ومن الشروط والعوامل الأخرى التي يتوجب مراعاتها لإنجاز هذه المهمة، هي فحص دور الأرشيف بمنطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وشمال أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، واستخراج الوثائق التي لها صلة بتاريخ الجزائر، واستغلالها لإعادة بناء الوقائع وتصحيحها. وأضاف إلى هذه التوجيهات العلمية والعملية، دعوة صريحة إلى تدعيم الباحثين وتشجيعهم من طرف المؤسسات المختصة مثل وزارة التعليم العالي والمركز الوطني للدراسات التاريخية، لأن هذه العملية تتطلب إمكانيات ضخمة مادية وتقنية، ليس في وسع الباحث أن يقوم بها بمفرده (بوعزيز، ي. 1985: 5).

ولم يخف بوعزيز أثناء حديثه عن تاريخ الجزائر ككل، ميوله واهتمامه بتاريخ الجزائر المعاصر، وذلك عندما نادى إلى جمع وثائق ثورة أول نوفمبر 1954م، وأثنى على مبادرة إنشاء المتحف الخاص بها. ثم عاد فنادى إلى ضرورة الالتفات إلى تاريخ ووثائق ثورات القرن التاسع عشر ميلادي وما قبله، واسترجاعها من المتاحف ودور الأرشيف الفرنسية بصفة خاصة والأجنبية بصورة عامة (بوعزيز، ي. 1980: 8).

وفي دعوة حديثة ومتأخرة، وجهها المؤرخ يحيى بوعزيز عام 2002م بمناسبة صدور كتابه عن مدينة وهران، حذر من تهاون المؤرخين وتقاعسهم عن التأريخ للمدن الجزائرية، لما تكتسيه المسألة من أهمية قصوى تتعلق بالهوية الحضارية وإثبات الذات، حيث قال: « ما تزال

عملية التأريخ للمدن الجزائرية، بطيئة ومتأخرة جدا رغم أهميتها، وهي إحدى القضايا التاريخية المطروحة على الباحثين الجزائريين في إطار إعادة صياغة تاريخ الجزائر الوطني. ذلك أن هذه المدن تعرضت لعملية الطمس والمسح والتشويه، بكيفية فضيعة جدا ... وذلك من طرف الإسبان والفرنسيين الذين بذلوا كل جهودهم لإثبات أن هذه البلاد كانت أوربية قبل أن تكون عربية إسلامية... » (بوعزيز، ي. 2002: 7).

تحرير التاريخ الوطني من الفكر الاستعماري: دور الوثيقة الوطنية

تطرق المؤرخ يحيى بوعزيز إلى أهمية الوثيقة الوطنية في تحرير التاريخ الوطني من الفكر الاستعماري، وذلك في كلمة الافتتاح التي ألقاها بمناسبة انعقاد يومين دراسيين من تنظيم مخبر "المصادر والتاريخ" بتاريخ 10-11 نوفمبر 1987م حول "أهمية المصادر المحلية في كتابة التاريخ" (بوعزيز، ي. 1988: ع57/2).

لقد تعرضت الوثيقة الوطنية الجزائرية في نظر بوعزيز إلى النهب والسلب والخطف والتخريب والحرق والإتلاف والإبادة من طرف جيش الاستعمار وإدارته، وهو الأمر الذي تعسرت معه عملية إعادة كتابة التاريخ الوطني وبناء وقائعه وتصحيحه. وشمل التهريب عددا معتبرا من المصادر والوثائق والمخطوطات؛ والمحفوظات والسجلات والكناشات والرسائل والمذكرات الخاصة والعامة، ووضعت بعد مصادرتها في دور المحفوظات والمكتبات العامة والخاصة، وهذه الوثائق المهربة هي كلها ثمينة وذات قيمة تاريخية وحضارية (بوعزيز، ي. 1988: ع56/2).

كما تسبب الاستعمار في إتلاف مجموع هام من الوثائق، بسبب حروب دامت قرنا وثلث قرن. فضاعت من جراء ذلك الوثائق، وضاع معها التراث الحضاري للجزائر الذي يعتبر جزءا هاما في الحضارة الإنسانية (بوعزيز، ي. 1988: ع56/2).

وفي تقدير بوعزيز، تتمثل عملية تحرير التاريخ الوطني من الفكر الاستعماري في تصحيح الأخطاء ودحض الزيف والتشويه ورفع اللبس وملء الفجوات. وهذا من خلال الوثيقة الوطنية الموجودة داخل الوطن أو

خارجه ، وهي ثرية بما تفيض من معلومات تاريخية (بوعزيز ، ي. 1988 : 57/2ع).

عزوف الباحثين الجزائريين عن الوثيقة المحلية: تصورات ومواقف

لم تلق الوثيقة المحلية العناية المطلوبة لدى الباحثين الجزائريين ، وذلك تحت طائلة جملة من الأسباب والاعتبارات ، أهمها أن البعض اعتقد بأن الوثيقة غير متوفرة وهي صعبة المنال ، بينما تصور البعض الآخر أنها قليلة الفائدة ولا تحمل في طياتها أي جديد « على أساس أنها كلها أو معظمها تبحث في القضايا الدينية التقليدية المكررة والمجتررة في كل بلدان العالم الإسلامي » (بوعزيز ، ي. 1988 : 57/2ع).

وما كان يؤمن به يحيى بوعزيز ويدعو إليه ، هو أن الوثائق المحلية هي كثيرة ومتنوعة : « تتناول موضوعات شتى من تاريخنا وحضارتنا على مدى التاريخ » ، وهي موزعة ومنتشرة في ربوع الوطن ، ويمكن العثور عليها عند العائلات وفي المساجد والزوايا والمكتبات العامة والخاصة . وأمام هذه الوضعية ، يرى بوعزيز أن الواجب يحتم علينا جمع هذه الوثائق وتصنيفها ودراستها ، وهي جديرة بأن تخدم التاريخ الوطني وتسد ثغراته وتصحح أخطائه وترفع عنه تزيف كتابات المدرسة الاستعمارية (بوعزيز ، ي. 1988 : 58/2ع).

وتعتبر التجربة الليبية في هذا المجال هي النموذج الذي يقتدى به : « فلماذا لا تقوم بلادنا نحن ، بمثل هذا الدور ، وهذا الجهد ». إن مركز جهاد الليبيين قام بتجربة رائدة في جمع الوثائق والبحث عنها في عين المكان : « حيث قسم البلاد الليبية إلى مناطق ... وأنشأ فرقا للبحث زودها بكل وسائل العمل من نقود وسيارات وآلات التصوير ... ». وكان يطلب هذا المركز من العائلات والأشخاص إهداء الوثائق أو بيعها ، أو السماح على الأقل بأخذ صورة فوتوغرافية عنها مقابل مكافآت تشجيعية ، كما كان يستوجب الشهود وصور الآثار المادية ويجمع الأدوات والأسلحة والمذكرات والرسائل والوصايا . وأثنى يحيى بوعزيز كثيرا على هذه الطريقة التي أعجب بها قائلا : « وبهذه الطريقة تمكن

المركز من جمع ثروة هائلة ومدهشة من الوثائق كون منها دار هامة للمحفوظات « (بوعزيز، ي. 1988: ع59/2).

ولم يكتف المركز المذكور حسب الأستاذ يحيى بوعزيز بما توفر من وثائق داخل البلاد، بل وجه عنايته إلى ما يوجد منها في الخارج، حيث كلف فرقا أخرى للبحث عنها في دور الأرشيف الأوربية والأمريكية وأخذ نسخا عنها. وانتهت العملية أخيرا بتصنيفها وفهرستها ثم دراستها ونشرها: « وظهرت فعلا إلى الوجود الدراسات الأولى ... تنبئ بمستقبل طيب، لتاريخ ليبيا عبر العصور خاصة الفترة الحديثة والمعاصرة « (بوعزيز، ي. 1988: ع59/2).

المصادر والمراجع:

- بوعزيز، يحيى. (1980). ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط. 1. قسنطينة: دار البعث للطباعة والنشر.
- بوعزيز، يحيى. (1985). علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500 - 1830. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- بوعزيز، يحيى. (1988). « كلمة الافتتاح في يوم دراسي حول أهمية المصادر المحلية في كتابة التاريخ ». دقاتر التاريخ المغربية، معهد التاريخ، جامعة وهران، ع2، ص ص 56 - 59.
- بوعزيز، يحيى. (2002). مدينة وهران عبر التاريخ، ط. 2. وهران: دار الغرب للنشر والتوزيع.
- سعيدوني، ناصر الدين. (2000). ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط. 1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- العروي، عبد الله. (1996). مجمل تاريخ المغرب، ط. 5. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

إشكالية كتابة التاريخ الوطني عند يحيى بوعزيز وموقف الاسطوغرافيا الاستعمارية منه

د. ودان بوغفالة،

مخبرات البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر

عندما عازمت على المشاركة في هذا الملتقى المخصص للمؤرخ يحيى بوعزيز، فكرت في الحديث عن "قضايا من التاريخ الوطني في كتابات يحيى بوعزيز" وما سجله من مواقف بخصوصها. ولكن عندما شرعت في معالجة الموضوع، وجدت أنه من الضروري البحث أولا عن قضية رئيسية لطالما شغلت بال بوعزيز، وكان يثيرها باستمرار في مناسبات مختلفة، ألا وهي إشكالية كتابة التاريخ الوطني نفسه، وما صاحب هذه العملية من تصورات وانشغالات وصعوبات وعوائق.

لقد انكب المؤرخ يحيى بوعزيز ومنذ بداية مشواره في البحث التاريخي؛ على دراسة التاريخ الوطني وسد ثغراته والنهوض بإحيائه وترقيته، وكان يحدوه الأمل في أن يرفع عنه التزوير والتشويه والاختلاق. ومن قضاياها التي أرقته وتصدى لها، قضية كيفية إعادة كتابة هذا التاريخ وتحريره من الأقلام التي طمسته ومسخته على حد تعبيره: «فتصدى جيل من الباحثين الفرنسيين، أغلبهم من ضباط جيش الاحتلال لتسجيل أحداث هذه الفترة من تاريخ الجزائر الحديث بصورة مشوهة وممسوخة، لخدمة الاستعمار، وترسيخ أقدامه، وتدعيمه، وطمسوا الكثير من الحقائق، وحرفوا غيرها، واختلقوا أشياء كثيرة لا صلة لها بتاريخ الجزائر، وأحداثها، وتطوراتها، ووقائعها الحقيقية» (بوعزيز، ي. 1985: 4).

ودارت المواضيع التي أثارها في مجلتي "الأصالة" و"الثقافة" خاصة؛ والتي تضمنتها كتبه المنشورة، حول تاريخ الجزائر الحديث وما ارتبطت به من أحداث محلية ودولية. كتب في تاريخ المدن، وتوقف مطولا عند

تاريخ الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، فاستعرض تاريخ المقاومة الشعبية ودولة الأمير عبد القادر، وتاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر. وفي كل مناسبة، كانت كلماته تتفجر وطنية وصدقاً وحماسة.

تدوين التاريخ الوطني: الوضعية والأسباب

يرى الأستاذ يحيى بوعزيز أن انشغال الجزائريين عبر التاريخ بصد العدو ودحر جيوشه حال دون تدوين تاريخ الجزائر، وهذا منذ العصور القديمة إلى غاية العصر الحديث ومرورا بفترة العصر الوسيط. ففي مقدمة كتابه "ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين" المؤرخة بالسادس والعشرين من شهر أفريل عام 1975م قال ما نصه: « إن التأريخ لماضي الجزائر شاق وعسير على اختلاف مراحلها وعصوره ... وذلك لقلة المصادر والوثائق وانشغال أجدادنا عن التدوين بالحروب ضد الغزوات الاستعمارية المتوالية على بلادنا منذ أقدم العصور » (بوعزيز، ي. 1980: 5).

إن التاريخ القديم للجزائر لم يكتبه الجزائريون، لأنهم انشغلوا بمجابهة استعمار متواصل لعدة قرون من طرف الفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين، والتاريخ الوسيط لم يكتب هو كذلك، لأن الجزائريين تأثروا بالأزمات السياسية والعسكرية الناتجة عن عدوى الخلافات الدينية والخصومات المذهبية من المشرق الإسلامي إلى الجزائر خاصة والمغرب الإسلامي عامة، ومثال ذلك الصراع المير بين دول القرن الثالث عشر ميلادي الحفصية والزيانية والمرينية (بوعزيز، ي. 1980: 5).

أما تاريخ الجزائر الحديث، فهو غامض على حد تعبير بوعزيز، وبه حلقات مفرغة وفجوات سياسية واقتصادية وعسكرية واجتماعية وثقافية. وإذا كانت بعض أحداثه وتطوراتها قد سجلت وتم التأريخ لها، فإنها لم تسجل بالمستوى المطلوب بسبب انشغال الشعب والسلطة معا بحرب الأعداء وحملاهم المتكررة على الجزائر من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلاديين: « وكأن الجزائر في هذه الفترة كانت

في حالة حرب لأكثر من أربعة قرون، وحالة الحرب لا تسمح بحفظ الأحداث والوقائع، أو الاهتمام بتسجيلها « (بوعزيز، ي. 1985: 4). ومثلما غاب التدوين التاريخي في المراحل التاريخية المذكورة، غاب كذلك في مرحلة التاريخ المعاصر ابتداء من عام 1830م. حيث حاولت فرنسا فصل الجزائر تماما عن ماضيها، وعن أمجادها الفكرية والحضارية، فصمم الشعب على المقاومة والاستبسال في الكفاح والجهاد، وألهاه ذلك عن التدوين التاريخي، والذي اهتم به الفرنسيون لخدمة الاستعمار (بوعزيز، ي. 1980: 5).

إن تاريخ الجزائر يقول بوعزيز، كتبه المؤرخون الفرنسيون وضباط جيش الاحتلال، وهو تاريخ مزور ومشوه ومختلق وممسوخ ومحرف. لقد كتب في غياب الوثيقة الوطنية التي اختفى بعضها وأتلف البعض الآخر، وحُمِل الباقي منها إلى ما وراء البحار (بوعزيز، ي. 1985: 4).

الإستوغرافيا الاستعمارية وتاريخ الجزائر: الخلفيات والأهداف

تحدث الأستاذ يحيى بوعزيز عن المدرسة الفرنسية وموقفها من التاريخ الوطني، وأكد بأن تاريخ الجزائر كتب في إطار التأريخ لأعمال الجيش الفرنسي وتاريخ فرنسا الذي سُمي بـ: "تاريخ فرنسا المحلي". وتضمن حديثه هذا أيضا الإشارة إلى أن كتابات الفرنسيين تمت من وجهة نظر واحدة، وكان هدفها خدمة الوجود الاستعماري وتبريره. وعليه فتاريخ الجزائر في الكتابات الفرنسية ليس صحيحا كله، وليس كاملا (بوعزيز، ي. 1980: 6-7، سعيدوني، ن. 2000: 64).

لقد أهملت الإستوغرافيا الاستعمارية - باستثناء قلة من المحدثين - المعلومات التي تزخر بها الوثائق الجزائرية، ولم تهتم إلا بما يخدم المشروع الاستعماري ويدعمه. ويعمل بوعزيز حرمان الفرنسيين من الوثيقة الجزائرية بسبب تسريبها إلى جهات أخرى، أو بسبب عائق اللغة العربية التي يجهلونها، فاعتنوا فقط بتحضير ملخصات مشوهة (بوعزيز، ي. 1980: 7).

وفي الوقت الذي عملت فيه الإستوغرافيا الاستعمارية على إثبات أن كل المدن وقرى الجزائر الكبيرة هي من تأسيس الرومان والبيزنطيين، تجاهلت دور السكان الأصليين في تأسيس المدن والمجمعات العمرانية. وركزت جل اهتمامها على دراسة الآثار التي تعود إلى العهد الروماني والبيزنطي وأعادت لها الاعتبار، وهو ما يتجلى بوضوح في الدراسات الخاصة بمدن بطيوة وشرشال وتيبازة وجميلة وتيمقاد وغيرها، وتأسف بوعزيز قائلاً: « وغاب عن أنظارهم بأن هذه الآثار شيدت بسواعد أجدادنا، ومهاراتهم وبإمكانيات بلادهم الاقتصادية » (بوعزيز، ي. 2002: 7-8).

ولم تكتف المدرسة الاستعمارية بتمجيد بقايا الحضارة الرومانية فحسب، بل تعمدت أن تتجاهل معالم الحضارة العربية الإسلامية بالمدن، كالمساجد والمدارس والزوايا والقصور والمكتبات والكتاتيب، وهذا بهدف طمس تلك المعالم وسلخ المدن عن طابعها الإسلامي الشرقي. ومثال ذلك مدن تلمسان وندرومة ووهران ومستغانم والجزائر وبجاية وغيرها (بوعزيز، ي. 2002: 8).

وإذا كانت بعض الدراسات الأوربية في نظر يحيى بوعزيز قد تناولت المدن الجزائرية وماضيها الحضاري إلا أنها: « لم تكن كاملة، ويشوبها النقص وتعوزها الدقة والشمولية والتكامل، لأنها ركزت بصفة خاصة إما على الفترة الرومانية القديمة، أو الفترة الأسبانية والفرنسية الحديثة، وإما على بعض المظاهر الأثرية العمرانية لبعض العهود الإسلامية الخاصة » (بوعزيز، ي. 2002: 8-9).

والذين تولوا كتابة التاريخ الوطني بالمواصفات المذكورة هم كتاب وباحثون، معاصرون ومحدثون، هواة وغاؤون، مدنيون وعسكريون، مختصون وغير مختصين. وكان هدفهم هو توجيه تاريخ الجزائر وجهة استعمارية « خبيثة وماكرة » لخدمة السياسة الاستعمارية وتبرير وجودها، علاوة على الأهداف العنصرية والصليبية البغيضة (بوعزيز، ي. 1988: 56/2 - 57؛ العروي، ع. 1996: 17/1).

إعادة صياغة أحداث التاريخ الوطني: الشروط والأفاق

وضع المؤرخ يحيى بوعزيز شروطا لإعادة صياغة أحداث التاريخ الوطني، وهي أنه لا بد من إعادة كتابة هذا التاريخ من وجهة النظر الوطنية، مع ضرورة استخدام الوثيقة الوطنية في هذه العملية. وعلى أن يتحقق ذلك من خلال عمل جماعي، تتكاثف فيه جهود الباحثين الأكفاء ذوي القدرة على البحث والتنقيب والاستقصاء واستغلال المصادر، لأن الجهد الشخصي لا يكفي وحده ولا يعجل بملء الفجوة (بوعزيز، ي. 1985: 4).

ومن الشروط والعوامل الأخرى التي يتوجب مراعاتها لإنجاز هذه المهمة، هي فحص دور الأرشيف بمنطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وشمال أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، واستخراج الوثائق التي لها صلة بتاريخ الجزائر، واستغلالها لإعادة بناء الوقائع وتصحيحها. وأضاف إلى هذه التوجيهات العلمية والعملية، دعوة صريحة إلى تدعيم الباحثين وتشجيعهم من طرف المؤسسات المختصة مثل وزارة التعليم العالي والمركز الوطني للدراسات التاريخية، لأن هذه العملية تتطلب إمكانيات ضخمة مادية وتقنية، ليس في وسع الباحث أن يقوم بها بمفرده (بوعزيز، ي. 1985: 5).

ولم يخف بوعزيز أثناء حديثه عن تاريخ الجزائر ككل، ميوله واهتمامه بتاريخ الجزائر المعاصر، وذلك عندما نادى إلى جمع وثائق ثورة أول نوفمبر 1954م، وأثنى على مبادرة إنشاء المتحف الخاص بها. ثم عاد فنادى إلى ضرورة الالتفات إلى تاريخ ووثائق ثورات القرن التاسع عشر ميلادي وما قبله، واسترجاعها من المتاحف ودور الأرشيف الفرنسية بصفة خاصة والأجنبية بصورة عامة (بوعزيز، ي. 1980: 8).

وفي دعوة حديثة ومتأخرة، وجهها المؤرخ يحيى بوعزيز عام 2002م بمناسبة صدور كتابه عن مدينة وهران، حذر من تهاون المؤرخين وتقاعسهم عن التأريخ للمدن الجزائرية، لما تكتسيه المسألة من أهمية قصوى تتعلق بالهوية الحضارية وإثبات الذات، حيث قال: « ما تزال

عملية التأريخ للمدن الجزائرية، بطيئة ومتأخرة جدا رغم أهميتها، وهي إحدى القضايا التاريخية المطروحة على الباحثين الجزائريين في إطار إعادة صياغة تاريخ الجزائر الوطني. ذلك أن هذه المدن تعرضت لعملية الطمس والمسح والتشويه، بكيفية فضيعة جدا ... وذلك من طرف الإسبان والفرنسيين الذين بذلوا كل جهودهم لإثبات أن هذه البلاد كانت أوربية قبل أن تكون عربية إسلامية... » (بوعزيز، ي. 2002: 7).

تحرير التاريخ الوطني من الفكر الاستعماري: دور الوثيقة الوطنية

تطرق المؤرخ يحيى بوعزيز إلى أهمية الوثيقة الوطنية في تحرير التاريخ الوطني من الفكر الاستعماري، وذلك في كلمة الافتتاح التي ألقاها بمناسبة انعقاد يومين دراسيين من تنظيم مخبر "المصادر والتاريخ" بتاريخ 10-11 نوفمبر 1987م حول "أهمية المصادر المحلية في كتابة التاريخ" (بوعزيز، ي. 1988: ع57/2).

لقد تعرضت الوثيقة الوطنية الجزائرية في نظر بوعزيز إلى النهب والسلب والخطف والتخريب والحرق والإتلاف والإبادة من طرف جيش الاستعمار وإدارته، وهو الأمر الذي تعسرت معه عملية إعادة كتابة التاريخ الوطني وبناء وقائعه وتصحيحه. وشمل التهريب عددا معتبرا من المصادر والوثائق والمخطوطات؛ والمحفوظات والسجلات والكناشات والرسائل والمذكرات الخاصة والعامة، ووضعت بعد مصادرتها في دور المحفوظات والمكتبات العامة والخاصة، وهذه الوثائق المهربة هي كلها ثمينة وذات قيمة تاريخية وحضارية (بوعزيز، ي. 1988: ع56/2).

كما تسبب الاستعمار في إتلاف مجموع هام من الوثائق، بسبب حروب دامت قرنا وثلث قرن. فضاعت من جراء ذلك الوثائق، وضاع معها التراث الحضاري للجزائر الذي يعتبر جزءا هاما في الحضارة الإنسانية (بوعزيز، ي. 1988: ع56/2).

وفي تقدير بوعزيز، تتمثل عملية تحرير التاريخ الوطني من الفكر الاستعماري في تصحيح الأخطاء ودحض الزيف والتشويه ورفع اللبس وملء الفجوات. وهذا من خلال الوثيقة الوطنية الموجودة داخل الوطن أو

خارجه ، وهي ثرية بما تفيض من معلومات تاريخية (بوعزيز ، ي. 1988 : 57/2ع).

عزوف الباحثين الجزائريين عن الوثيقة المحلية: تصورات ومواقف

لم تلق الوثيقة المحلية العناية المطلوبة لدى الباحثين الجزائريين ، وذلك تحت طائلة جملة من الأسباب والاعتبارات ، أهمها أن البعض اعتقد بأن الوثيقة غير متوفرة وهي صعبة المنال ، بينما تصور البعض الآخر أنها قليلة الفائدة ولا تحمل في طياتها أي جديد « على أساس أنها كلها أو معظمها تبحث في القضايا الدينية التقليدية المكررة والمجتررة في كل بلدان العالم الإسلامي » (بوعزيز ، ي. 1988 : 57/2ع).

وما كان يؤمن به يحيى بوعزيز ويدعو إليه ، هو أن الوثائق المحلية هي كثيرة ومتنوعة : « تتناول موضوعات شتى من تاريخنا وحضارتنا على مدى التاريخ » ، وهي موزعة ومنتشرة في ربوع الوطن ، ويمكن العثور عليها عند العائلات وفي المساجد والزوايا والمكتبات العامة والخاصة . وأمام هذه الوضعية ، يرى بوعزيز أن الواجب يحتم علينا جمع هذه الوثائق وتصنيفها ودراستها ، وهي جديرة بأن تخدم التاريخ الوطني وتسد ثغراته وتصحح أخطائه وترفع عنه تزيف كتابات المدرسة الاستعمارية (بوعزيز ، ي. 1988 : 58/2ع).

وتعتبر التجربة الليبية في هذا المجال هي النموذج الذي يقتدى به : « فلماذا لا تقوم بلادنا نحن ، بمثل هذا الدور ، وهذا الجهد ». إن مركز جهاد الليبيين قام بتجربة رائدة في جمع الوثائق والبحث عنها في عين المكان : « حيث قسم البلاد الليبية إلى مناطق ... وأنشأ فرقا للبحث زودها بكل وسائل العمل من نقود وسيارات وآلات التصوير ... ». وكان يطلب هذا المركز من العائلات والأشخاص إهداء الوثائق أو بيعها ، أو السماح على الأقل بأخذ صورة فوتوغرافية عنها مقابل مكافآت تشجيعية ، كما كان يستوجب الشهود وصور الآثار المادية ويجمع الأدوات والأسلحة والمذكرات والرسائل والوصايا . وأثنى يحيى بوعزيز كثيرا على هذه الطريقة التي أعجب بها قائلا : « وبهذه الطريقة تمكن

المركز من جمع ثروة هائلة ومدهشة من الوثائق كون منها دار هامة للمحفوظات « (بوعزيز، ي. 1988: ع59/2).

ولم يكتف المركز المذكور حسب الأستاذ يحيى بوعزيز بما توفر من وثائق داخل البلاد، بل وجه عنايته إلى ما يوجد منها في الخارج، حيث كلف فرقا أخرى للبحث عنها في دور الأرشيف الأوربية والأمريكية وأخذ نسخا عنها. وانتهت العملية أخيرا بتصنيفها وفهرستها ثم دراستها ونشرها: « وظهرت فعلا إلى الوجود الدراسات الأولى ... تنبئ بمستقبل طيب، لتاريخ ليبيا عبر العصور خاصة الفترة الحديثة والمعاصرة « (بوعزيز، ي. 1988: ع59/2).

المصادر والمراجع:

- بوعزيز، يحيى. (1980). ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط. 1. قسنطينة: دار البعث للطباعة والنشر.
- بوعزيز، يحيى. (1985). علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500 - 1830. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- بوعزيز، يحيى. (1988). « كلمة الافتتاح في يوم دراسي حول أهمية المصادر المحلية في كتابة التاريخ ». دقاتر التاريخ المغربية، معهد التاريخ، جامعة وهران، ع2، ص ص 56 - 59.
- بوعزيز، يحيى. (2002). مدينة وهران عبر التاريخ، ط. 2. وهران: دار الغرب للنشر والتوزيع.
- سعيدوني، ناصر الدين. (2000). ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط. 1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- العروي، عبد الله. (1996). مجمل تاريخ المغرب، ط. 5. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.